أربعينية الصادق بن مهني

25 أكتوبر 2023

محمد الحبيب مرسيط

سأ تحدث اليوم عن الصادق بن مهني من خلال كتابه "سارق الطماطم , أو زادني الحبس عمرا "
لقد جاء الكتاب في 130 صفحة من الحجم الصغير, من نوع كتب الجيب, وقسمه الصادق إلي أربعة فصول وقال عنه أحد النقاد "أنه جاء لحظات شعرية...وأخري سردية ...عواطف, عواصف, ذكريات, خواطر شاردة واعترافات تتمازج وتتماسك لصياغة نص فريد من معدن خاص " لكن هناك سؤال ما أظن أنه لم يتبادر إلي عقول أغلبية من قرأوا الكتاب وإطلعوا علي فصوله لماذا إختار الصادق من مهني هذا العنوان الغريب لمؤلفه " سارق الطماطم , أو زادني الحبس عمرا " ... ونحن عند قراءة هذا العنوان نصاب بنوع من الصدمة وبعضا من الإستغرا ب الإستنكاري..لماذا سارق؟..ولماذا الطماطم ؟... ولماذا هذه الأفضلية والأسبقية علي "زادني الحبس عمرا" .. ما ذا يريد الصادق من هكذا عنوان إستفزازي؟

ومن يقرأ الكتاب يجد في الصفحة 96 إجابة أولي علي هذا السؤال, فهو يروي حكاية علاقة مؤثرة بقت في الذاكرة بينه وبين "كهل خلته مسنا لشدة هزاله وترهله..أخبرني أنه حوكم في الأصل بالسجن بقية الحياة \ أي المؤبد \ ثم سألني = كيف الدنيا وراء الأسوار؟؟ ...حدثني مرة علي شهوة تجتاحه .. أن يقضم بما تبقي له من أسنان حبة طماطم طازجة" سرقت حبات طماطم من مؤونتنا وأهبته إياها..غلبته الفرحة حتي بدا لي طفلا وقال لي أنه غدا خادما لي وطوع أوامري " ولما عاندته ورفضت بكي ..."
هذه هي الحادثة التي إنتقاها الصادق من بين عشرات الحوادث التي عا شها في السجن ...فلماذا هذا الإختيار ؟ ؟ وما هي الرمزية التي يقصدها من خلاله ؟؟ ومن الأكيد أنه لا يقصد مجرد الغرابة والإستفزاز... وحتي إن قصد ذلك عرضا فهو يرنو إلي ما وراء ذلك بداهة .. وقد قدم هو ذاته إجابة عن ذلك في الصفحة الموالية\ ص 97 \ يقول الصادق= " في كل السجون التي قضيت فيها ردحا من الزمن لم أسمع عن جرائم وعصابات منظمة ونادرا ما قيل لي = فلان مجرم خطير" فهو يعتبر أن أغلبية السجناء هم في الحقيقة أناس عاديين جدا ..طيبين , لكن الحظ الأرعن هو الذي رمي بهم في براثن الجريمة في لحظة غضب غادر فإرتكبوا فعلتهم الخرقاء وكانوا هم أنفسهم أول ضحاياها و ها هم بعد ذلك يدفعون الثمن غاليا وراء قضبان السجون والمعتقلات.

والصادق بن مهني , وهو المثقف العضوي والمناضل المعتقل من أجل أفكاره يشعر بالتضامن مع هؤلاء المساجين ولا يشعر بفارق كبير بينه وبينهم , فكثيرا ما نلاقي في السجن رجالا أو نساء ا من خيرة الرجال والنساء فيهم من النبل وطيب الأخلاق وعزة النفس ما لا تجده في العديد من الطلقاء خارج أسوار السجون , لكنها لعبة القدر وقصور العدالة البشرية وعبثية أنظمة الجريمة والعقاب كما تناولها ميشال فوكو ودستيوفسكي علي أنها علاج خاطئ سيء لسلوك خاطئ سيء

ولعل الصادق بن مهني إختا ر هذا العنوان" المربك" ليدفعنا إلي التفكير والتأمل وليقول لنا بأن السجن كما زاده عمرا فقد علمه كيف يميز بين جواهر الأشياء وقشورها وبين معادن بني البشر رخيصها وثمينها ...وهو لا يميز بين ضحية قمع سياسي وضحية قمع إقتصادي أو إجتماعي أو ثقافي ووضع صورته إلي جانب العنوان حتي يتجنب أي شكل من أشكال المواربة أو التخفي وبنوع من التحدي والعناد....

وروح المكاشفة والجرأة في التعبير عن قناعاته الشخصية ستشق الكتاب من أول سطوره إلي آخرها فجاءت شهادته صادقة وأمينة ...دون رتوش أو رمي ورود أو مجاملة ...و رغم حقيقة صموده البطولي أمام جلادي أمن الدولة الذ ين ساموه شتي أنواع العذاب والتنكيل... ورغم صبره وجلده خلال السنوات الطوال التي قضاها وراء القضبان

أثناء التحقيق الذي دام أسابيع في مخافر أمن الدولة الموحشة , تعرض الصادق إلي أبشع إنواع التعذيب المادي والمعنوي من ضرب مبرح وتعليق الهيليكوبتر وصعق كهربائي وتقليم أظافر والحرق بالسجائر والغرق في الماء والحرمان من النوم...والقائمة تطول والصادق لا ينبس ببنت شفة...لم يعطهم حتي إسمه , وتعب الجلادون ولم يتعب الصادق من المقاومة والمواجهة ...حتي ظنوا أنه أبكم أو إنه قد فقد صوته تحت هول ما يحدث له...وفي المحصلة النهائية إنتصر الصادق علي جلاديه... ومما يزيدنا دهشة وتقديرا عاليا لهذا الصود والصبر علي الأذي عندما يعلمنا الصادق إنه كان علي خلاف مع قيادة منظمته وأنه كان قد قرر الإستقا لة من هذه القيادة

لقد سجل الصادق بهذا الموقف صفحة ناصعة من صفحات نضال المناضلين الديمقراطيين الولسيين من أمثال أحمد عثماني وحمة الهمامي وإبراهيم رزق الله والتي ترتقي الي درجة تضحيات أعز وأنبل أبناء هذا الشعب من أمثال محمد علي الحامي وفرحات حشاد والدغباجي والسعداوي

ويقدم لنا الصادق تفسيرا لقوله " زادني الحبس عمرا" فيرجع الفضل في ذلك إلي رفاقه "الذين بسجنهم غنمت فرصة, عاشرت طينة مغايرة خالصة لا تنكسر...هؤلاء الذين ذكرتهم وسواهم , هؤلاء الذين يمكنهم وقتها أن يهنأوا بالعيش اللين لكنهم إختاروا قولة "لا" صريحة, صداحة , تصدع وخرجوا عن القطيع الخانع وهبوا يبتغون أن يكون الشعب هو الأصل والمجاهد الأكبر....تحس أنك لم تخسر عمرك بل زادك الحبس عمرا علي عمرك" فتعلم من رفاقه ومعهم تاريخ البلاد وتاريخ العالم ...وتعلم من القدامي تاريخ منظمته وتاريخ اليسار وحركة التحرير الوطني.. وفتح عقله ودماغه علي المدارس الفلسفية والعلمية والأدبية, قديمها وحديثها...تعلم من النوري بوزيد أسرار السينما ونجومها , وعلمه فتحي المسدي قواعد المنطق , أحمد السويسي سهر علي علاجه وعلي سلامته , رؤوفا حنونا ... وكان لكل واحد من رفاقه نصيبه الخاص في تربيته وإثراء تجربته وبناء شخصيته

هكذا تحول السجن عند الصادق إلي مدرسة تصقل العقل وتشحذ الإرادة ولم تذهب سنوات الإعتقال سدي بل حولته إلي إنسان آخر...فتحت عقله ووجدانه.. وصهرت طباعه .. وكان لهذا الإختبار النضالي عظيم الأثر علي كل حياته .. وواصل الصادق نضاله بعد خروجه من السجن فساهم في تأسيس فرع تونس لمنظمة العفو الدولية وساهم من مواقع متقدمة في إثراء المنظمة العالمية لمناهضة التعذيب كما بادر مع فلذة كبده لينا بن مهني في إرساء تقليد جمع الكتب وتوزيعها علي السجون وعلي المدارس في المناطق الريفية النائية وتنظيم شبكات جمع الأدوية وتوزيعها علي المرضي المحتاجين إليها

لقد عاش الصادق ومات شمعة نور تضيء علي الآخرين وخيمة تضحية وعطاء..يضحي بأعز ما يملك من أجل الدفاع عن المظلومين والمضطهدين ... من أجل قيم الحرية والكرامة والعدل

لك المجد والخلود يا صادق ...وستبقي ذكراك عطرة مدي الدهر

محمد الحبيب مرسيط

25 أكتوبر 2023